تفسير إبن كثير

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

القراء السبعة على ضم الدال من قوله : (الحمد الله وهو مبتدأ وخبر . وروي عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج أنهما قالا الحمد الله بالنصب وهو على إضمار فعل ، وقرأ ابن أبي عبلة : (الحمد الله بضم الدال واللام إتباعا للثاني الأول وله شواهد لكنه شاذ ، وعن الحسن وزيد بن علي : الحمد الله بكسر الدال إتباعا للأول الثاني .قال أبو جعفر بن جرير : معنى الحمد الله الشكر الله خالصا دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، في تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه ، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرا .[وقال ابن جرير : الحمد الله ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال : قولوا :

الحمد الله] .قال : وقد قيل : إن قول القائل : (الحمد الله ، ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنى ، وقوله : الشكر الله ثناء عليه بنعمه وأياديه ، ثم شرع في رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر .[وقد نقل السلمي هذا المذهب أنهما سواء عن جعفر الصادق وابن عطاء من الصوفية . وقال ابن عباس : الحمد الله كلمة كل شاكر ، وقد استدل القرطبي لابن جرير بصحة قول القائل : الحمد الله شكرا] .وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر ؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ، ويكون بالجنان واللسان والأركان ، كما قال الشاعر :أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجباولكنهم اختلفوا : أيهما أعم ، الحمد أو الشكر ؟ على قولين ، والتحقيق أن بينهما عموما وخصوصا ، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه ؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية ، تقول : حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه . وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول ، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه ، لأنه يكون بالقول والعمل والنية ، كما تقدم ، وهو أخص ؛ لأنه لا يكون

إلا على الصفات المتعدية ، لا يقال : شكرته لفروسيته ، وتقول : شكرته على كرمه وإحسانه إلي . هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين ، واالله أعلم .وقال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري : الحمد نقيض الذم ، تقول : حمدت الرجل أحمده حمدا ومحمدة ، فهو حميد ومحمود ، والتحميد أبلغ من الحمد ، والحمد أعم من الشكر . وقال في الشكر : هو الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف ، يقال : شكرته ، وشكرت له . وباللام أفصح .[وأما المدح فهو أعم من الحمد ؛ لأنه يكون للحي وللميت وللجماد - أيضا - كما يمدح الطعام والمال ونحو ذلك ، ويكون قبل الإحسان وبعده ، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضا فهو أعم] .ذكر أقوال السلف في الحمدقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو معمر القطيعي ، حدثنا حفص ، عن حجاج ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس ، رضي االله عنهما ، قال : قال عمر : قد علمنا سبحان االله ، ولا إله إلا االله ، فما الحمد الله ؟ فقال علي : كلمة رضيها االله لنفسه .ورواه غير أبي معمر ، عن حفص ، فقال : قال عمر لعلي ، وأصحابه عنده : لا إله إلا االله ، وسبحان االله ، واالله أكبر ، قد عرفناها ، فما الحمد الله ؟ قال علي : كلمة أحبها [االله] لنفسه ، ورضيها لنفسه ، وأحب أن تقال .وقال علي بن

زيد بن جدعان ، عن يوسف بن مهران ، قال : قال ابن عباس : الحمد الله كلمة الشكر ، وإذا قال العبد : الحمد الله ، قال : شكرني عبدي . رواه ابن أبي حاتم .وروى - أيضا - هو وابن جرير ، من حديث بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : أنه قال : الحمد الله هو الشكر الله والاستخذاء له ، والإقرار له بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك .وقال كعب الأحبار : الحمد الله ثناء الله . وقال الضحاك : الحمد الله رداء الرحمن . وقد ورد الحديث بنحو ذلك .قال ابن جرير : حدثني سعيد بن عمرو السكوني ، حدثنا بقية بن الوليد ، حدثني عيسى بن إبراهيم ، عن موسى بن أبي حبيب ، عن الحكم بن عمير ، وكانت له صحبة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا قلت : الحمد الله رب العالمين ، فقد شكرت الله ، فزادك .وقد روى الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا روح ، حدثنا عوف ، عن الحسن ، عن الأسود بن سريع ، قال : قلت : يا رسول الله ، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي ، تبارك وتعالى ؟ فقال : أما إن ربك يحب الحمد .ورواه النسائي ، عن علي بن حجر ، عن ابن علية ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن ، عن الأسود بن سريع ، به .وروى الترمذي ، والنسائي وابن ماجه ، من حديث موسى بن إبراهيم بن كثير

، عن طلحة بن خراش ، عن جابر بن عبد االله ، قال : قال رسول االله صلى االله عليه وسلم : أفضل الذكر لا إله إلا االله ، وأفضل الدعاء الحمد الله . وقال الترمذي : حسن غريب .وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال : قال رسول االله صلى االله عليه وسلم : ما أنعم االله على عبد نعمة فقال : الحمد الله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ . وقال القرطبي في تفسيره ، وفي نوادر الأصول عن أنس عن النبي صلى االله عليه وسلم قال : لو أن الدنيا بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال : الحمد الله ، لكان الحمد الله أفضل من ذلك . قال القرطبي وغيره : أي لكان إلهامه الحمد الله أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا ؛ لأن ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى ، قال االله تعالى : المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا [الكهف : 46] . وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر : أن رسول االله صلى االله عليه وسلم حدثهم : أن عبدا من عباد االله قال : يا رب ، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا إلى السماء فقالا يا رب ، إن عبدا قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها ، قال االله - وهو أعلم بما قال عبده - : ماذا قال عبدي ؟ قالا يا رب إنه قد

قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك . فقال االله لهما : اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها .وحكى القرطبي عن طائفة أنهم قالوا : قول العبد : الحمد الله رب العالمين ، أفضل من قول : لا إله إلا االله ؛ لاشتمال " الحمد الله رب العالمين " على التوحيد مع الحمد ، وقال آخرون : لا إله إلا االله أفضل لأنها الفصل بين الإيمان والكفر ، وعليها يقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا االله كما ثبت في الحديث المتفق عليه وفي الحديث الآخر في السنن : أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا االله وحده لا شريك له . وقد تقدم عن جابر مرفوعا : أفضل الذكر لا إله إلا االله ، وأفضل الدعاء الحمد الله . وحسنه الترمذي .والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد ، وصنوفه الله تعالى كما جاء في الحديث : اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله الحديث .رب العالمين والرب هو : المالك المتصرف ، ويطلق في اللغة على السيد ، وعلى المتصرف للإصلاح ، وكل ذلك صحيح في حق االله تعالى .[ولا يستعمل الرب لغير االله ، بل بالإضافة تقول : رب الدار ، رب كذا ، وأما الرب فلا يقال إلا الله عز وجل ، وقد قيل : إنه الاسم الأعظم] .

والعالمين : جمع عالم ، [وهو كل موجود سوى االله عز وجل] ، والعالم جمع لا واحد له من لفظه ، والعوالم أصناف المخلوقات [في السماوات والأرض] في البر والبحر ، وكل قرن منها وجيل يسمى عالما أيضا .قال بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : (الحمد الله رب العالمين) [الفاتحة : 2] الحمد الله الذي له الخلق كله ، السماوات والأرضون ، ومن فيهن وما بينهن ، مما نعلم ، وما لا نعلم .وفي رواية سعيد بن جبير ، وعكرمة ، عن ابن عباس : رب الجن والإنس . وكذلك قال سعيد بن جبير ، ومجاهد وابن جريج ، وروي عن علي [نحوه] . وقال ابن أبي حاتم : بإسناد لا يعتمد عليه .واستدل القرطبي لهذا القول بقوله : (ليكون للعالمين نذيرا) [الفرقان : 1] وهم الجن والإنس . وقال الفراء وأبو عبيدة : العالم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين ولا يقال للبهائم : عالم ، وعن زيد بن أسلم وأبي عمرو بن العلاء : كل ما له روح يرتزق . وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم - وهو آخر خلفاء بني أمية ويعرف بالجعد ويلقب بالحمار - أنه قال : خلق االله سبعة عشر ألف عالم أهل السماوات وأهل الأرض عالم واحد وسائر ذلك لا يعلمه إلا

االله ، عز وجل .وقال قتادة : رب العالمين ، كل صنف عالم . وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية في قوله تعالى رب العالمين قال : الإنس عالم ، والجن عالم ، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم ، أو أربعة عشر ألف عالم ، هو يشك ، من الملائكة على الأرض ، وللأرض أربع زوايا ، في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم ، وخمسمائة عالم ، خلقهم [االله] لعبادته . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .[وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح] .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن خالد ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا الفرات ، يعني ابن الوليد ، عن معتب بن سمي ، عن تبيع ، يعني الحميري ، في قوله : رب العالمين قال : العالمين ألف أمة فستمائة في البحر ، وأربعمائة في البر .[وحكي مثله عن سعيد بن المسيب] .وقد روي نحو هذا مرفوعا كما قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى في مسنده :حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عبيد بن واقد القيسي ، أبو عباد ، حدثني محمد بن عيسى بن كيسان ، حدثنا محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد االله ، قال : قل الجراد في سنة من سني عمر التي ولي فيها فسأل عنه ، فلم يخبر بشيء ، فاغتم لذلك ، فأرسل راكبا يضرب إلى اليمن ، وآخر إلى

الشام ، وآخر إلى العراق ، يسأل : هل رئي من الجراد شيء أم لا ؟ قال : فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد ، فألقاها بين يديه ، فلما رآها كبر ، ثم قال : سمعت رسول االله صلى االله عليه وسلم يقول : خلق االله ألف أمة ، ستمائة في البحر وأربعمائة في البر ، فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد ، فإذا هلك تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه . محمد بن عيسى هذا - وهو الهلالي - ضعيف .وحكى البغوي عن سعيد بن المسيب أنه قال : الله ألف عالم ؛ ستمائة في البحر وأربعمائة في البر ، وقال وهب بن منبه : الله ثمانية عشر ألف عالم ؛ الدنيا عالم منها . وقال مقاتل : العوالم ثمانون ألفا . وقال كعب الأحبار : لا يعلم عدد العوالم إلا االله عز وجل . نقله كله البغوي ، وحكى القرطبي عن أبي سعيد الخدري أنه قال : إن الله أربعين ألف عالم ؛ الدنيا من شرقها إلى مغربها عالم واحد منها ، وقال الزجاج : العالم كل ما خلق االله في الدنيا والآخرة . قال القرطبي : وهذا هو الصحيح أنه شامل لكل العالمين ، كقوله : قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين والعالم مشتق من العلامة (قلت) : لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته كما قال ابن المعتز :فيا عجبا كيف يعصى

الإله أم كيف يجحده الجاحد وفي كل شيء له آيةتدل على أنه واحد